٣٠.

حضارة الصراعات

حيث يسقط السيف على الولايات المتحدة بعد ثمانين سنة، يرفع النفاق رأسه وينوح على موتى هؤلاء القتلة الذين استباحوا دماء وشرف المسلمين وعتباتهم المقدسة.. وحين يدافع هؤلاء عن أبنائهم وإخوانهم وأخواتهم المضطهدين في فلسطين وغيرها من البلاد الإسلامية يصرخ العالم برمته. يصرخ الكفار، ويتبعهم المنافقون.. يناصرون الزور والبهتان، ويؤيدون الجزار ضد الضحية، والظلم ضد الطفل البريء.. بعد هذا الحدث.. يجب على كل مسلم أن يسارع للدفاع عن دينه. (ترجمة عن الإنكليزية)

أسامة بن لادن، ٧/١٠/ ٢٠٠١ [١].

هنالك ظرف إنساني يجب أن نهتم به في أوقات الحرب. ثمة منظومة قيم لا يمكن التنازل عنها – قيم من عند الله. ليست من اختراع أمريكا. إنها قيم الحرية والإنسانية وحب الأمهات لأبنائهن. ما يهم حين نمارس سياستنا الخارجية عبر الديبلوماسية والأعمال العسكرية، هو أن لا نبدو وكأننا ابتكرنا أو خلقنا هذه القيم.

جورج ووكر بوش، ٢٠٠٢ [٢].

إلى الأرض المقدسة

سعت الإمبراطوريات على مر التاريخ إلى السيطرة على بعض مناطق العالم من أجل ثرواتها الباطنية. أغرى الرصاص والفضة الرومان بغزو بريطانيا في القرن الأول.

obeikandi.com

وكان الذهب هو الذي أغرى الفاتحين الأسبان باحتلال البيرو في القرن السادس عشر، والبريطانيين باحتلال الترانسفال* في القرن التاسع عشر. كما سعت الإمبراطوريات - تقليديا - لفرض ثقافاتها على البلاد التي تستخرج منها المعادن الثمينة. "تلتنت" إنكلترا مثلما "تأنكلزت" منطقة الراند** في جنوب أفريقيا. هذا النموذج أوحى للعديد من المحللين المعاصرين بأن للعلاقة الأمريكية مع الشرق الأوسط طبيعة إمبراطورية. فمن ناحية، هنالك مصلحة واضحة وطويلة الأمد للولايات المتحدة في المخزون النفطي الهائل في المنطقة. ومن ناحية أخرى، يطمح الأمريكيون - كما يقال - إلى تغيير ثقافتها السياسية، التي ثبت أنها معارضة بشكل فريد للدقرطة.

لكن إذا اعتبرت هذه هي الدوافع المحددة للسياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، فإن هذه السياسة أبعد ما تكون عن النجاح. فسيطرة الولايات المتحدة على منابع النفط العربية تقلصت بحدة في حقبة ما بعد الحرب نتيجة سياسة التأميم التي تبنتها الأنظمة المعادية للولايات المتحدة بشكل سافر. وتبعا لعملية المسح السنوية التي يجريها "بيت الحرية"، لا يمكن اعتبار سوى دولتين فقط هما إسرائيل وتركيا - من بين خمس عشرة دولة في المنطقة - ديمقراطيتين. وهذا يصدق أيضا

* منطقة في شمال شرق جنوب أفريقيا، استوطنها البوير الذين أقاموا دولة مستقلة دعيت بـ"جمهورية جنوب أفريقيا" في خمسينات القرن التاسع عشر. ثم ضمتها بريطانيا عام ١٨٧٧، لكن اكتشاف الذهب عام ١٨٨٦ أدى إلى تدفق المستوطنين وتفاقم التوتر بين بريطانيا والبوير. في نهاية المطاف أصبحت الترانسفال إمارة عام ١٩٠٠ بعد حرب البوير. ثم غدت جزءا من جنوب أفريقيا عام ١٩١٠. (المترجم)

** منطقة في شمال شرق جنوب أفريقيا تقع بين نهر فال وجوهانسبرغ. وتضم أغنى مناجم الذهب في العالم منذ اكتشاف الذهب فيها عام ١٨٨٦ (منطقة مناجم الذهب الرئيسة في الترانسفال). (المترجم)

على الوضع عام ١٩٥٠، باستثناء أن مصر وإيران ولبنان وسورية كانت أقرب إلى الحرية السياسية مقارنة بحالها الآن.

وكما تشير افتتاحية هذا الفصل، يستخدم قادة أمريكا أحيانا لغة تبدو وكأنها تؤكد مزاعم أعدائها الألداء في العالم العربي الذين يقولون بأنها تشن حربا "صليبية" جديدة على الإسلام. بل إن الرئيس جورج دبليو بوش استخدم في زلة لسان كلمة "حرب صليبية" لوصف الحرب التي رغب بشنها على الإرهاب في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. لكن "صراع الحضارات" فكرة كاريكاتورية مثلها مثل فكرة أن أمريكا مهتمة بنفط الشرق الأوسط فقط. وما يساعد على جعل الأمور أكثر وضوحا هو إدراك دور أمريكا باعتبارها مشاركا أقل تلهفا وحماسا للانخراط في صراعات الحضارة المتميزة في المنطقة، حيث اختلت وظيفة الثقافة، ووفرت الأديان المتنافسة والموارد الطبيعية معظم محتوى الصراع السياسي، لكن "الشكل" هو الأمر المميز حقا. والشكل هو بالطبع الإرهاب.

أصبح من المعروف أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ شكلت واحدة من نقاط التحول في التاريخ الحديث. لكن القول بأنها ليست كذلك لا يقلل من حجم المعاناة التي سببها الإرهابيون لآلاف الأسر - أو من الصدمة التي أصابت الوعي الجمعي الأمريكي. ومما لا شك فيه أن أسامة بن لادن ومساعديه قد ارتكبوا جرائم بشعة يجب محاسبتهم عليها. ويصح ذلك حتى دون أخذ دوافعهم بعين الاعتبار. النقطة الحاسمة من وجهة نظر المؤرخ هي أن هذه الدوافع كانت نتاج قوى تاريخية بعيدة المدى، تعود جذورها إلى عقود خلت، ولم يتغير اتجاهها أبدا - تقريبا - بعد ذلك. في صبيحة ذاك اليوم المشرق بدا أن سيرورة تاريخ علاقة أمريكا مع الشرق الأوسط قد وصلت إلى نقطة تحول حادة. ومثلما كان شهر آذار/ مارس ١٨٤٨ في تاريخ ألمانيا، كان شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ نقطة تحول لكن لم يغير فيها هذا التاريخ مساره.

الخطوات الأولى

ساد الافتراض القائل بأن أكبر إخفاق منيت به السياسة الأمريكية خلال الحرب الباردة هو الهزيمة في فيتنام. لكن ثبت أن خسارة معظم مناطق الهند الصينية لصالح الأنظمة الشيوعية لم يكن مهما من الناحية الاستراتيجية وإن كان محرجا من الناحية السياسية. لقد تعرضت الولايات المتحدة للإذلال وبذلت ماء وجهها. هذا كل ما خسرته. بينما دفع الشعب في فيتنام وكمبوديا ثمنا مرعبا وباهظا لفشل أميركا؛ في حين تمكن الأمريكيون أنفسهم من الابتعاد عن حطام سياسة "الاحتواء". لم تظهر حقيقة أن ما حدث في فيتنام لم يكن مهما إلا ببطء وبالتدريج أمام صناع ومخططي السياسة في واشنطن. وكذلك حال كوبا - عند التمعن العميق والتفكير الناضج - ولهذا السبب تخلت الولايات المتحدة بهدوء عن هدف إسقاط نظام كاسترو. فقد ثبت أن الشيوعيين في الدول النامية - من هانوي إلى هافانا - لا يشكلون تهديدا جديا للأمن القومي الأمريكي. وفي حالة كوبا، فقد يرتكب الشيوعيون كل أنواع الأعمال المزعجة والضارة على المسارح الهامشية (في الأطراف): والشاهد على ذلك مشاركة كاسترو النشطة في الحرب الأهلية التي اندلعت في كل من أنغولا وإثيوبيا. لكن إذا حظيت منطقة الكاريبي ببعض الأهمية، فإن منطقة جنوب الصحراء الأفريقية ليست لها أية أهمية تذكر، مقارنة بالمنطقة التي لم يكن بمقدور الولايات المتحدة "خسارتها" في بداية السبعينات، ألا وهي الشرق الأوسط.

ظهر العديد من التصورات والمفاهيم الخاطئة حول موقف الولايات المتحدة تجاه المنطقة. أحدها يشير إلى أن الولايات المتحدة تتحرك بدافع "العلاقة الخاصة" - غير المشروطة وغير الخاضعة للنقاش - مع دولة إسرائيل. ويؤكد آخر أن الولايات المتحدة أتت إلى الشرق الأوسط بسبب المخزون الهائل من النفط الكامن تحت رمال

صحاريها. ويقول ثالث إن هجمات الحادي عشر من سبتمبر هي عقوبة عادلة تستحقها الولايات المتحدة نتيجة أفعالها الشريرة وآثامها في المنطقة. هذه الأفكار والآراء تنحصر عموما في دائرة أعضاء "القاعدة". فما كادت تنطفئ النيران وتنجلي سحابة الغبار فوق منهاتن، حتى سارع موكب من أصحاب "الآراء القويمة" لإطلاق وابل من النظريات المشابهة في الصحافة[٣]. لكن الحقيقة أشد تعقيدا بكثير. أولا، اتصفت علاقة أمريكا مع إسرائيل بالتوتر والازدواجية منذ أمد طويل، وهي ليست زواجا مقدسا لا فكاك منه. ثانيا، الولايات المتحدة الغنية بالنفط تظل أقل اعتمادا على نفط الشرق الأوسط من أوروبا الغربية أو اليابان. أما "السيطرة" على مخزون النفط في شبه الجزيرة العربية فهو هدف أنكرته الولايات المتحدة منذ عهد بعيد؛ وإذا كانت هذه السيطرة ضرورية حقا لضمان تدفق النفط إلى العالم الغربي، فإن الألمان واليابانيين المحرومين من البترول هم الذين يجب أن يضغطوا من أجلها بكل حماس. ثالثا، ظاهرة الإرهاب في الشرق الأوسط - وفي كل مكان - لم تكن تستهدف حتى عهد قريب الولايات المتحدة. الملفت في أحداث الحادي عشر من سبتمبر هو أن يمر هذا الوقت الطويل قبل أن يتفجر غضب إرهابي عارم على التراب الأمريكي. وما بدا أنه الدافع المحفز للمهاجمين يتعذر وصفه بردة الفعل على الأفعال الأمريكية الشريرة والآثمة، فقواتها متمركزة في السعودية بشكل رئيس للدفاع عنها وعن جيرانها ضد عدوان دولة عربية أخرى: العراق.

بلغت أهمية الشرق الأوسط في السياسة الخارجية الأمريكية خلال العقود الثلاثة الماضية حدا يجعل من السهل علينا نسيان القدر القليل من الانتباه الذي تركز عليه قبل ذلك[٤]. فقبل الخمسينات، كان التواجد الأمريكي في الشرق الأوسط أكاديميا كما كان استراتيجيا، اتخذ شكل مؤسسات أمريكية شهيرة

مثل الجامعتين الأمريكيتين في القاهرة وبيروت، وكلية روبرتس في استانبول، وكلية البورز في إيران. في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٦، حدد لوي هندرسون، مدير قسم شؤون الشرق الأدنى وإفريقيا في وزارة الخارجية الأمريكية "الهدف الرئيس" للسياسة الأمريكية في المنطقة باعتبارها تتمحور حول "منع تنافس المصالح والنزاعات في تلك المنطقة من أن تتحول إلى أعمال عدائية سافرة، الأمر الذي قد يؤدي في نهاية المطاف إلى حرب عالمية ثالثة"[٥]. وهذا ما حصر دور الولايات المتحدة في قالب الحكم العادل والصالح على الأغلب. ولم تسع إلى مزيد من التعهدات الملزمة لها. بريطانيا هي التي قررت - عمليا - تسليم الأمريكيين مسؤولية تركيا (واليونان أيضا) في عام ١٩٤٧. بعد ذلك، ظل البريطانيون القوة الخارجية المهيمنة على المنطقة لعقد آخر من السنين على الأقل، وحتى بعد الإخفاق الذريع في أزمة السويس، استمروا في اعتبار الخليج العربي جزءا من مجال نفوذهم.

اهتمت الولايات المتحدة بالمنطقة - اقتصاديا - منذ عهد بعيد. فبدءا من العشرينات، بذلت شركات النفط الأمريكية جهدا دؤوبا لترسيخ موطئ قدم لها هناك، مجبرة الشركات البريطانية المترددة على منحها حصة في شركة النفط التركية (العراقية لاحقا) وذلك بعد سنة من اكتشاف البريطانيين النفط في بابا غرغور عام ١٩٢٧[٦]. كان الوقت ما يزال مبكرا؛ وحتى بحلول عام ١٩٤٠، لم تتجاوز حصة منتجي النفط في الشرق الأوسط نسبة ٥٪ من الإنتاج العالمي. لكن الأمريكيين اقتنعوا الآن بالإمكانيات الهائلة غير المستغلة هناك [٧]. في الثلاثينات، عملوا بكد ودأب، بمساعدة البريطاني المرتد* المستعرب، هاري فيلبي، لتحويل المملكة الصحراوية التي تحكمها العائلة السعودية إلى دولة حليفة للولايات المتحدة[٨]. وخلال الحرب العالمية الثانية استغلوا ضعف بريطانيا لاقتراح عقد صفقة

* لم يزل كثير من الغربيين ساخطين على فلبي بسبب إسلامه، كتب انتوني بروان كتابا عنه وعن ابنه سماه:"الخيانة في الدم. (المُراجع)

معها: ستأخذ الولايات المتحدة السعودية، وتترك لبريطانيا بلاد فارس؛ وتتقاسم معها العراق والكويت[٩]. وهكذا ترسخ نمط العلاقات الأمريكية - السعودية: مال وسلاح مقابل تنازلات نفطية وقواعد عسكرية[١٠]. أما اتحاد شركات النفط الذي شكل شركة النفط العربية الأمريكية (أرامكو)، فقد أصبح قناة ريع للسعودية؛ وسرعان ما بدأت تدفع لها نصف عائداتها، وهي مدفوعات اعتبرتها وزارة الخزانة الأمريكية محسومة من ضريبة الدخل[١١]. تأثر جون فوستر دالاس، أول وزير خارجية أمريكي يزور المنطقة عام ١٩٥٣؛ وأعلن أن للنفط وغيره من الموارد الطبيعية في المنطقة "أهمية حيوية بالنسبة لسعادتنا ورفاهنا"[١٢].

لكن إذا اعتقدت الولايات المتحدة فعلا بذلك، فقد كان من الواجب عليها بالتأكيد أن تتصرف بشكل مختلف تماما فيما يتعلق بجانب جوهري واحد. فلا شيء يمكن أن يثير عداوة الشعوب العربية مثل الدعم المستمر لإسرائيل، والاعتراف الفوري بالدولة الجديدة كان في كثير من النواحي من مسؤولية هاري ترومان؛ إذ ألح بإصرار على المسألة في أيار/ مايو ١٩٤٨ خلافا لنصيحة وزارة الخارجية[١٣]. التزام ترومان استمر بعده وبحلول عام ١٩٥٨، غدت الأهمية البالغة للعلاقة مع إسرائيل حقيقية بدهية في السياسة الخارجية الأمريكية. وحسب تعبير أحد السفراء الأمريكيين في مصر: "تمثل إسرائيل أقدم اهتماماتنا المباشرة في المنطقة.. فاستمرارية وجود إسرائيل كدولة مستقلة تمثل بالتأكيد التزاما أساسيا لسياسة الولايات المتحدة الخارجية.. "[١٤]. ركز العديد من المحللين انتباههم على الأسباب الكامنة وراء هذا الالتزام: النفوذ السياسي لما يسمى باللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة؛ الشعور بالذنب نتيجة "الهولوكوست" لدى الرأي العام الأوسع؛ حقيقة أن إسرائيل هي واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط؛ اعتقاد المسيحيين البروتستانت بأن عودة اليهود إلى الأرض المقدسة هي علامة مبشرة بعودة المسيح الثانية الوشيكة. لكن ما لم يلاحظه الكثيرون الخلافات التي حدثت بين إسرائيل

والولايات المتحدة مرارا وتكرارا. فدعم ترومان لإسرائيل لم يشمل المساعدات العسكرية على سبيل المثال. كما أن دالاس أوقف المعونة لإسرائيل في أكثر من مناسبة. واتخذت الولايات المتحدة موقفا معاديا لإسرائيل حين احتلت سيناء وقطاع غزة عام ١٩٥٦*، وأصرت على انسحابها منهما. وامتنعت عن ضمان حرية المرور في مضائق تيران لسفن الشحن الإسرائيلية عشية حرب الأيام الستة، بالرغم من تعهدها بفعل ذلك أمام الأمم المتحدة. وفيما بعد، فضلت تدويل القدس، وانتقدت سياسة الاستيطان الإسرائيلية في الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧[١٥]، فاحتلالها لقطاع غزة والضفة الغربية لم يخدم المصالح الأمريكية على ما بدا واضحا.

لم يكن العامل الحاسم في جذب الولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط في الخمسينات متمثلا في إسرائيل ولا النفط، بل الخوف من الاتحاد السوفييتي؛ أو على وجه الدقة الخوف من أن ينجح الروس في استغلال أزمة الإمبراطوريات الأوروبية في العالم العربي مثلما فعلوا في آسيا[١٦]. لكن الروس، كما تبين لاحقا، كانوا على درجة مشهودة من الغباء. فمحاولات ستالين لمغازلة طهران أفرزت نتائج عكسية[١٧]؛ وبالمقارنة مع ذلك، بدا أن إسقاط حكومة رئيس الوزراء الإيراني محمد مصدق، الذي تعجل في تأميم شركة البترول الأنكلو - إيرانية، وهي عملية استحثتها بريطانيا ونفذتها وكالة المخابرات المركزية (CIA)، قد ضمن الهيمنة الأمريكية بأقل قدر من التكلفة[١٨]. أما الأس المنطقي وراء "عملية أجاكس" الأمريكية فكان في جوهره احتواء الاتحاد السوفييتي بشكل استباقي. ومثلما تذكر أحد عملاء وكالة المخابرات المركزية: "كانت [العملية] تتعلق بما فعله السوفييت وبما عرفناه عن خططهم المستقبلية". فقد احتلت إيران، برأيه، مرتبة "مرتفعة جدا" على "لائحة الأولويات" الروسية[١٩].

* كلام المؤلف هنا ليس دقيقا من حيث الفكرة والمعلومات التاريخية، فاحتلال غزة وسينا كانا في عام ١٩٦٧م. (المُراجع)

شكك بعض الأمريكيين بجدوى وحكمة دعم الدول الاستعمارية القديمة ضد زعيم شعبي لم يكن ماركسيا على ما يبدو. في مصر، كان الدافع الأمريكي الأولي هو دعم وتأييد الزعيم الوطني "الديماغوجي" جمال عبد الناصر ضد البريطانيين*؛ وفي الحقيقة، شجعت وزارة الخارجية بشكل صريح الزعيم المصري على المطالبة بإنهاء الوجود العسكري البريطاني في منطقة قناة السويس. لكن بحلول عام ١٩٥٦، أزعجت مغازلات عبد الناصر مع الروس ومحاولاته إثارة الجماهير في بقية دول العالم العربي كلا من ايزنهاور ودالاس ودفعتهما لتحديه (هو وخروتشوف) أن يطبق ما يعلنه من أهداف. أما رفض الأمريكان تمويل مشروع السد العالي في أسوان، فقد استحث عبد الناصر على تأميم قناة السويس[٢٠] (وهي عملية التأميم الشهيرة الثانية في الشرق الأوسط). عند هذه النقطة المفصلية، كانت الأمور ستتخذ منحى مختلفا تماما - ليس في الشرق الأوسط وحده - لو تمكنت الولايات المتحدة من كبح جماح بريطانيا وإسرائيل، وهما من أقرب حلفائها (كما هو مفترض). بدلا من ذلك، وافق رئيس الوزراء البريطاني انتوني ايدن على خطة فرنسية رعناء لإعادة احتلال قناة السويس بالقوة، بذريعة وقف حرب عربية - إسرائيلية أعد مسرحها الإسرائيليون عن طيب خاطر. لم يقتصر الأمر على امتناع ايدن عن استشارة ايزنهاور فقط؛ بل تلقى تحذيرا صريحا من الأمريكيين بأن الولايات المتحدة لن تصادق على مثل هذه الخطة، وذلك لسبب بسيط وهو أنها ستبدو مغامرة استعمارية جديدة مفضوحة وأشد فظاعة من إسقاط حكومة مصدق، وقد تدفع كل دول الشرق الأوسط - باستثناء إسرائيل - إلى أحضان خروتشوف. سأل ايزنهاور متشككا: "كيف يمكن أن نؤيد بريطانيا وفرنسا إذا كنا سنخسر العالم العربي برمته لو فعلنا ذلك؟"[٢١].

*بشأن هذه العلاقات راجع كتاب: محمد جلال كشك "ثورة يوليو الأمريكية". (المُراجع)

لسوء الحظ، "بدا" أن تهديد خروتشوف العلني باستخدام الأسلحة النووية هو السبب الذي دفع بريطانيا وفرنسا إلى الانسحاب[٢٢]، في حين كان السبب في الحقيقة هو الزيادة الكارثية في الطلب على الجنيه الإسترليني والرفض الأمريكي إقراض بريطانيا سنتا واحدا قبل موافقة ايدن على الانسحاب. والأسوأ من ذلك ما أصاب الغرب من تشوش وفوضى منح الروس حرية استخدام أشد الأساليب وحشية لقمع وإسقاط حكومة امري ناجي الإصلاحية في المجر. وهكذا لم تنل الولايات أي فضل في القاهرة لإيقاف ايدن عند حده[٢٣]، وبعد سنتين وجدت نفسها عاجزة عن فعل أي شيء، حين قامت مجموعة من ضباط الجيش العراقي - بتحريض من عبد الناصر - بثورة في بغداد أسقطت الملك الهاشمي المؤيد لبريطانيا، فيصل الثاني، وقتلته مع رئيس وزرائه نوري السعيد. أما قرار إرسال قوة من "المارينز" قوامها خمسة عشر ألف رجل إلى لبنان في أعقاب الانقلاب في العراق فلم يحقق شيئا يذكر؛ وفي الحقيقة، يصعب رؤية ما يمكن لهذه القوة أن تفعله في لبنان بحيث يؤثر في مجرى الأحداث في بغداد أو غيرها (كانت بيروت آنذاك ملعبا كوزموبوليتانيا مفتوحا، لا مدينة حرب وقتال كما جرى فيها فيما بعد)[٢٤]. إذا كانت الاستراتيجية الأمريكية مدفوعة برغبتها بالسيطرة على نفط الشرق الأوسط، فإن ما حصل سيمثل نكسة خطيرة. إذ لم تنقض فترة طويلة على الانقلاب قبل أن تلغي الحكومة العراقية الجديدة التنازلات والمزايا الممنوحة لشركة البترول العراقية (وتنهي بالتالي المكسب الرئيس لبريطانيا من غزوها الناجح للعراق عام ١٩١٧)؛ وكان العراق واحدا من أولى الدول العربية التي أممت صناعتها النفطية[٢٥]. في تلك الأثناء، أوقفت السعودية مشتريات السلاح من الولايات المتحدة، وامتنعت عن تجديد عقد إيجار قاعدة الظهران الجوية[٢٦]. وخلافا لكاسترو في كوبا، لم يبد عبد الناصر اهتماما كبيرا بالنموذج الاقتصادي السوفييتي، لكنه ابتهج بالحصول على ما تقدمه موسكو من هبات سخية، وسخر هازئا من واشنطن[٢٧].

بين غزة والخليج

بحلول أواخر الخمسينات، تبدت ثلاثة عوامل واضحة - ومؤلمة - فيما يتعلق بموقف الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. أولا، اعتبر الإسرائيليون تأييد الولايات المتحدة، لكافة أهدافهم ومقاصدهم، غير خاضع لشروط ولا تحده قيود. فبمقدورهم فعل ما يشتهون. ثانيا، أصبحت شركات النفط الأمريكية معرضة لخطر التأميم - مثلها مثل أسهم بريطانيا في قناة السويس - من قبل الحكومات العربية التي لم تكن راغبة بأن يشاركها الأجانب في ريع نفطها. ثالثا، غدا التعايش السلمي بين إسرائيل وجيرانها العرب أمرا مستبعدا، إن لم يكن مستحيلا؛ واضطرت الولايات المتحدة لتقليص حجم الضرر الناتج عن الصراع في الشرق الأوسط إلى الحد الأدنى. أما الخبر المشجع من وجهة النظر الأمريكية فهو أن الاختراق السوفييتي للشرق الأوسط كان أقل نجاحا - كما ثبت - مقارنة بتوقعات عام ١٩٥٨. في حين تمثل الخبر السيئ في ظهور تهديد أخطر - أو أقل قابلية للتوقع - من الاختراق السوفييتي في أعقاب الحروب الإسرائيلية، ألا وهو الإرهاب:الإثم القديم الأصيل للشرق الأوسط الحديث. فما فعله الصهاينة المتطرفون ذات مرة لإخراج البريطانيين من فلسطين فعله الفلسطينيون الآن ضد الإسرائيليين، حالما تلاشت آمال العرب بتحقيق نصر عسكري.

على الصعيد النظري، يتحمل الإسرائيليون مسؤولية الخطأ، لأن الدولة التي أعلنوها عام ١٩٤٨ منعت تنفيذ قرار الأمم المتحدة القاضي بتقسيم فلسطين. أما على الصعيد العملي، فكان على الإسرائيليين القتال والكفاح من أجل البقاء. لكن الجيوش المشتركة للبنان وسورية والعراق وشرق الأردن ومصر، مدعومة

بالمملكة العربية السعودية، فشلت فشلا ذريعا في خنق الدولة الوليدة في مهدها. شكلت معركة السويس إذلالا مهينا لبريطانيا وفرنسا، لكنها كانت بمثابة نصر لإسرائيل: فقد احتلت قطاع غزة وشرم الشيخ، رغم وضع المنطقتين بعد ذلك تحت سيطرة الأمم المتحدة؛ وأصيبت القوات المصرية بخسائر فادحة مقابل كلفة قليلة نسبيا تكبدتها قوات الدفاع الإسرائيلية. وكانت حرب الأيام الستة ردا مباشرا ومشروعا من قبل إسرائيل ضد الاستعدادات الواضحة التي قادتها مصر تحضيرا للحرب؛ فقبل عشرة أيام من قيام إسرائيل بشن أولى ضرباتها الجوية، تعهد عبد الناصر بجلاء لا لبس فيه بمحو إسرائيل من على الخارطة. مرة أخرى هزم العرب بسهولة، واحتلت إسرائيل - مجددا - سيناء وغزة، كما احتلت الضفة الغربية ومن ضمنها القدس، وذلك ردا على قرار الأردن بالانضمام إلى جانب مصر، بالإضافة

الشكل ٧
المساعدات الأمريكية لإسرائيل
كنسبة من إجمالي الدخل القومي الإسرائيلي
١٩٦٦-٢٠٠٠

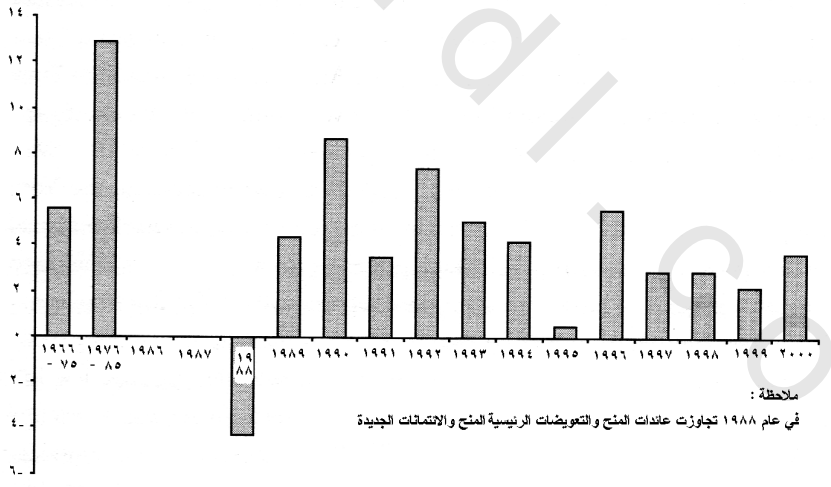

Source: Calculated from data in various issues of the *Statistical Abstract of the United States* and the World Bank *World Development Indicators* database.

إلى مرتفعات الجولان. وبالرغم من النجاحات الأولية التي حققتها القوات المصرية والسورية في حرب تشرين الأول/ أكتوبر، إلا أن الهجوم المصري السوري على إسرائيل لم يحقق أهدافه في النهاية. وحتى مع الدعم العراقي والسوفييتي، اضطر الجيشان العربيان للتراجع إلى قواعد انطلاقهما. وبحلول عام ١٩٨٢، شعر الإسرائيليون بالثقة الكافية لغزو لبنان.

في ردهم على هذه التهديدات الخارجية، لم يشعر الإسرائيليون بأن من واجبهم استشارة الولايات المتحدة. لم تبلغ إسرائيل أمريكا عن عزمها على شن الهجوم في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧؛ ولم يهلل الأمريكيون كثيرا للانتصارات الإسرائيلية المتلاحقة. ومثلما علق نيكسون في مقابلة أجراها عام ١٩٧٠، أصبح الشرق الأوسط "خطرا إلى حد مريع - فهو يشبه منطقة البلقان قبل الحرب العالمية الأولى - ويمكن أن يورط القوتين العظميين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، في مواجهة لا يرغبها أي منهما بسبب الخلافات هناك"[٢٨]. ومع حلول الردع محل الاحتواء، لم تستسغ أي من القوتين العظميين احتمال اندلاع حرب عربية - إسرائيلية أخرى. وحين اندلعت عام ١٩٧٣، لم يقدم الأمريكيون المساعدة لإسرائيل إلا بعد أن توضحت حقيقة دعم الروس للطرف الآخر؛ وفي كلتا الحالتين، تمتعت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي - نتيجة الدعم المقدم للطرفين المتحاربين - بالقدرة على الضغط من أجل التوصل إلى وقف لإطلاق النار. لكن تبين أن التوسط من أجل السلام عملية بالغة الصعوبة[٢٩]. استمر السياسيون الأمريكيون والإسرائيليون في اتباع صيغة الخطوط المألوفة الآن حول "العلاقة الخاصة" و"الصداقة العميقة"[٣٠]. ووصلت المعونة الأمريكية إلى إسرائيل ذرى غير مسبوقة: فبين عامي ١٩٧٦ـ ١٩٨٥، ذهب ربع كافة المعونات الاقتصادية والعسكرية الأمريكية إلى إسرائيل - لتبلغ في مجموعها الإجمالي خمسة وعشرين مليار دولار. وهو مبلغ يعادل حوالي ١٣٪ من الدخل القومي الإجمالي في إسرائيل (انظر الشكل

٧). لكن كلما تنامى الدور النزيه الذي اتخذته الولايات المتحدة كوسيط بين مصر وإسرائيل، كلما نقص ما يستطيع المال شراؤه[٣١].

صحيح أن الرئيس جيمي كارتر قد استحث رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن على التخلي عن سيناء من أجل السلام مع مصر، إلا أن ذلك هو كل ما كان بمقدوره فعله؛ أما المحادثات حول الأراضي المحتلة فلم تسفر عن أية نتيجة. في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨١، حين قررت إسرائيل تغيير الوضع القانوني لمرتفعات الجولان وضمها إليها، وإخضاعها لسلطتها القانونية والقضائية والإدارية، أيدت الولايات المتحدة قرار الأمم المتحدة الذي أدان هذا الإجراء[٣٢]. وحين اجتاحت إسرائيل لبنان بعد سبعة أشهر، أسهمت الولايات المتحدة في قوة حفظ السلام التي جرى نشرها لمنع تصعيد النزاع. في تلك السنة بالذات، اعترض الإسرائيليون عمليا على محاولة رونالد ريغان التي استهدفت تحقيق "بداية جديدة" في عملية السلام. لم يفكر الأمريكيون أبدا بإحداث قطيعة مع إسرائيل. وفي الحقيقة، أعقب الاتفاق الموقع عام ١٩٨٣ بين ريغان ورئيس الوزراء الإسرائيلي اسحق شامير ازدياد مهم في التعاون العسكري والمعونة الاقتصادية[٣٣]. لكن الإسرائيليين قاوموا بعناد الضغط الأمريكي من أجل التفاوض مع الفلسطينيين. وبحلول أوائل كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٨، قبل ياسر عرفات الشروط الأمريكية المسبقة للبدء بحوار ثنائي (التخلي عن الإرهاب، الاعتراف بدولة إسرائيل، القبول بقراري مجلس الأمن ٢٤٢و ٣٣٨) [٣٤]. لكن الإسرائيليين أصبحوا أقل رغبة في التفكير بالعودة إلى حدود عام ١٩٦٧. ومع كل عام يمر، ومع استمرار الاستيطان في الأراضي المحتلة (بلغ عدد المستوطنين قرابة ثلاثين ألفا في عام ١٩٨٣)، ولجوء الفلسطينيين الذين يعيشون هناك إلى العنف، أصبحت العودة إلى الوضع السابق على الحالة الراهنة أمرا يصعب تصوره. احتج الأمريكيون على سياسة الاستيطان واستخدام الذخيرة الحية ضد رماة الحجارة الفلسطينيين، لكن من دون طائل[٣٥].

تمثلت الصعوبة الأساسية بالنسبة للأمريكيين في حقيقة أنه مع ترسخ تفوق إسرائيل العسكري على الدول العربية، الأمر الذي دفع الفلسطينيين للجوء إلى الإرهاب بدلا من الحرب التقليدية، تعاظمت الأهمية "الاقتصادية" للدول العربية. في عام ١٩٥٣، كانت الولايات المتحدة ما تزال تنتج أكثر من نصف إجمالي الإنتاج العالمي من النفط؛ وبحلول عام ١٩٧٣، انخفضت حصتها إلى ٢١٪. أما واردات النفط الأمريكية فكانت ضئيلة للغاية ذات مرة؛ لكن بحلول عام ١٩٧٧، قفزت إلى ٤٦٪ من الاستهلاك الإجمالي، وأتت من الشرق الأوسط حصة تتنامى باطراد من هذه الواردات[٣٦]. وكان لذلك محاسنه ومساوئه بالنسبة للولايات المتحدة. فمع تنامي ثروة الأقطار المصدرة للنفط، أنفقت مبالغ مالية أكبر على شراء البضائع والسلع الأمريكية واستثمرت مبالغ ضخمة من واردات البترودولار في الولايات المتحدة[٣٧]. فبين عامي ١٩٧٠ـ ١٩٧٢، مثلا، ارتفعت مشتريات المملكة العربية السعودية من السلاح الأمريكي بمقدار عشرين مرة[٣٨]. وفي السنوات التالية، تم بيع أسلحة إلى السعودية تقدر قيمتها بثلاثة وثمانين مليار دولار[٣٩]. وعلى أية حال، ظل جزء مهم من صناعة النفط في الشرق الأوسط بأيدي الأمريكيين، رغم أن النسبة انخفضت حين أممت السعودية "أرامكو" في نهاية المطاف[٤٠]. علاوة على ذلك، لم تبلغ الولايات المتحدة درجة اعتماد حلفائها الرئيسيين فعلا على النفط العربي[٤١]. فخلال الحرب الباردة، أعطى ذلك للشرق الأوسط بعدا استراتيجيا واقتصاديا في آن. وكما برهن يوجين روستو عام ١٩٧٥: "الاهتمام [الأمريكي] الأول والأساسي يتركز على الأهمية الجيوسياسية للشرق الأوسط بالنسبة للدفاع عن أوروبا. فتحالفنا مع أوروبا الغربية يحظى بأهمية جوهرية مطلقة لتوازن القوة في العالم، الذي يعتمد عليه الآن الأمن الأساسي للولايات المتحدة.. أما السيطرة المهيمنة على النفط، وعلى المنطقة من قبل الاتحاد السوفييتي فستحمل في ركابها الهيمنة على أوروبا الغربية أيضا. مما يؤدي إلى تفكك حلف شمال الأطلسي (NATO)"[٤٢]. حتى هذه المرحلة، لم يكن في الحقيقة ثمة داع للقلق. فقد توقف السوفييت - إلى حد ما - عن ممارسة

تأثيرهم ونفوذهم في القاهرة منذ طرد خبرائهم العسكريين عام ١٩٧٢. ومع أنهم ظلوا يتمتعون ببعض النفوذ في سورية، إلا أن ذلك لم يرتق إلى مرتبة "السيطرة المهيمنة". وفي المقابل، بدا أن الأمريكيين قد احتلوا موقع البريطانيين السابق من حيث الهيمنة على دول الخليج الصغيرة التي تعتبر من بين أغنى الدول بـ"الذهب الأسود": الكويت، الإمارات العربية المتحدة، البحرين، قطر، عمان[٤٣]. وفي تلك الأثناء (٧٣ - ٧٤)، لم تنجح ديبلوماسية هنري كيسنجر المكوكية في إقناع مصر وإسرائيل بـ"فك الارتباط" فقط، بل أنهت بسرعة حظر تصدير النفط السعودي.

إلا أن الهيمنة السوفييتية - تحديدا - على نفط الشرق الأوسط لم تكن بالضرورة السبب الذي جعل الولايات المتحدة والدول الحليفة تعاني من المصاعب الاقتصادية الحادة. إذ تكفي السيطرة العربية في هذا السياق. العقيد الليبي معمر القذافي أظهر ذلك علنا حين استغل زيادة الطلب الغربي على النفط الليبي فرفع الأسعار وزاد من نسبة الأرباح ثم أمم في نهاية المطاف أصول وممتلكات شركات النفط. وحتى عام ١٩٧٢، نجحت الولايات المتحدة في تحقيق ما اعتبر مستحيلا، وذلك عند الجمع بين تأييد إسرائيل ودعم الملك السعودي الذي كان يبغض الصهيونية بقدر كرهه للشيوعية[٤٤]. لكن في عام ١٩٧٣، دعم السعوديون الهجوم المصري على إسرائيل، لا بالجنود بل بزيادة أسعار النفط بنسبة ٧٠٪، وبفرض حظر نفطي تدريجي أوقف إمدادات النفط للدول المؤيدة لإسرائيل بنسبة ٥٪ كل شهر. وعندما ضاعفت أمريكا مساعداتها لإسرائيل، فرضت السعودية حظرا شاملا على صادرات النفط إلى الولايات المتحدة. وفي وقت كانت فيه السلطات النقدية في أمريكا وأوروبا الغربية ما تزال تتعلم التعايش مع معدلات الصرف العائمة، وحين كانت السلطات المالية هناك تتبنى - عموما - نسخة مبتذلة من النظرية الكينزية*

* - نسبة للاقتصادي الإنكليزي جون مينارد كينز (١٨٨٣- ١٩٤٦)، الذي نادى بتحكم الدولة بالاقتصاد عن طريق المال والضرائب. في كتابه "النظرية العامة للاستخدام والفائدة والمال"

فيما يتعلق بالتحكم بالطلب، أفرز الارتفاع الحاد في أسعار النفط عواقب وتبعات دراماتيكية. ارتفعت معدلات التضخم، ووصلت التمويلات العامة إلى نقطة الخطر، وتفاقمت نسبة البطالة (انظر الشكل ٨). وستلي ذلك فترة سيئة من "الركود والتضخم" في أعقاب أخطر نكسة تصيب السياسة الخارجية الأمريكية: الثورة الإيرانية التي اندلعت عام ١٩٧٩، حيث لم يستبدل الحليف الذي تدعمه أمريكا، الشاه محمد رضا بهلوي (الذي أتخمه الغرور والتيه ذات مرة وأصبح الآن مريضا عاجزا)، بعميل سوفييتي بل بحكومة لم يتوقعها أحد أبدا، حكومة ثيوقراطية راديكالية تناصر الأصولية الإسلامية.

الشكل ٨
أسعار النفط ومؤشر البؤس
١٩٧٠ - ٢٠٠٢

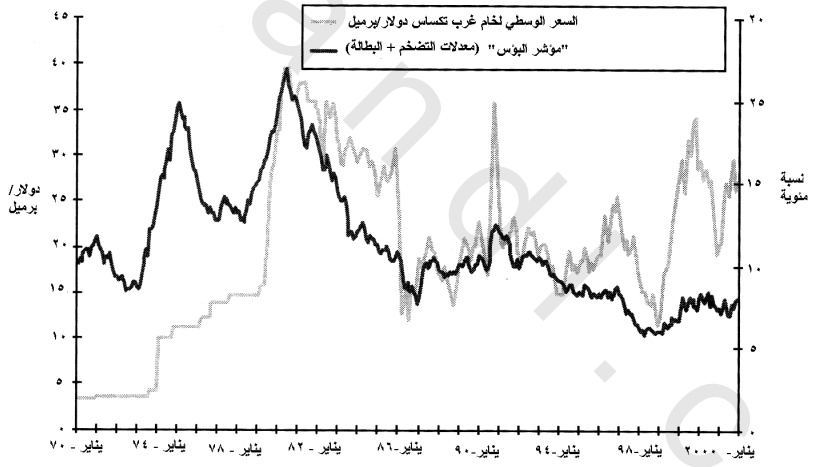

Source: Economagic.

(١٩٣٦)، قدم كينز الحجة على أن الاستخدام الكامل للقوة العاملة ليس ظرفا طبيعيا بل يحدده الطلب، الأمر الذي يتطلب من الحكومة الإنفاق على الأشغال العامة للحد من البطالة وتحفيز النشاط الاقتصادي. (المترجم)

لم يكن الشاه أسوأ الحكام المستبدين الذين نصبتهم ودعمتهم الولايات المتحدة. صحيح أن نظامه كان أبعد ما يكون عن الليبرالية، وميله للاستهلاك والاستعراض كان يفتقد الحكمة، إلا أنه بالمقارنة من الديكتاتوريين الذين رعتهم الولايات المتحدة في نيكاراغوا أو تشيلي، يمكن اعتباره مستبدا مستنيرا. ومما لا شك فيه أن العدالة غابت عن المجتمع في إيران الشاه، تبعا لمعايير الولايات المتحدة أو أوروبا الغربية، لكن الوضع الاجتماعي شابه نظيره في تركيا، ولم ينحدر إلى درك الحالة في دول أمريكا اللاتينية. أما الأمر الغريب فهو اللامبالاة التي أبداها "مهندسو" النظام الأمريكيون عندما أخذت البلاد تنزلق نحو حافة هاوية الثورة. وكما رأينا سابقا، لم تكن لخسارة فيتنام لصالح ورثة هو شي منه أهمية جيوسياسية فعلية. لكن خسارة إيران لصالح آية الله الخميني، لينين الثورة الإسلامية، كانت بمثابة نكبة كارثية صعب - ويصعب - التكهن بعواقبها. فإيران أكبر دولة - بعد تركيا - في الشرق الأوسط، يبلغ عدد سكانها ثلاثة أضعاف سكان العراق. والأهم أنها تحتل المرتبة الثانية - بعد السعودية - في إنتاج النفط، حيث تجاوز إنتاجها نسبة ١٠٪ من الإنتاج الإجمالي العالمي عام ١٩٧٣، مما جعلها تحتل المرتبة الثالثة في العالم (كانت الولايات المتحدة ما تزال أكبر منتج للنفط في العالم آنذاك)[٤٥].

في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٠، قام الرئيس كارتر، الذي كان ما يزال يترنح من أزمة احتجاز اثنين وخمسين أمريكيا رهائن في السفارة الأمريكية في طهران، بمحاولة حماسية لإعادة تحديد الاستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط. ولذلك أعلن أن "أية محاولة من قبل قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج 'الفارسي' سوف تعتبر هجوما على المصالح الحيوية للولايات المتحدة.. وسيتم صد مثل هذا الهجوم بالوسائل الضرورية، بما فيها القوة العسكرية"[٤٦].

كان القصد من الإعلان إرسال إشارة إلى الاتحاد السوفييتي، الذي قام لتوه بغزوه الكارثي الطائش لأفغانستان، تحذره من مغبة استغلال الأزمة الإيرانية لغاياته الخاصة. وفي ذات الوقت، انحدرت العلاقات بين المعسكرين إلى الحضيض، وبدا الوضع وكأنه يمر بواحدة من أزمات الحرب الباردة الخطيرة؛ بل إن كارتر نفسه وصف العمل الروسي بأنه أعظم تهديد يدهم السلم العالمي منذ عام ١٩٤٥. وفي أعقاب ذلك، دخل سباق التسلح أخطر مراحله على الإطلاق، حيث نشرت الصواريخ النووية متوسطة المدى من قبل السوفييت أولا، ثم من قبل الأمريكيين في خضم احتجاجات عنيفة ضدها في بعض الأحيان. لم يكن من غير المنطقي الخوف من استغلال موسكو للفوضى العارمة في طهران والاستفادة منها؛ فقد اعتبرت منذ أمد بعيد أن بلاد فارس تحظى بأهمية استراتيجية كبيرة، وشاركت في الواقع - بشكل غير رسمي - بريطانيا في الهيمنة على المنطقة منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى أربعينات القرن العشرين. لكن تبين أن "القوة الخارجية" التي فكر بها كارتر لم تكن هي المشكلة في الشرق الأوسط، فمنذ ذلك الحين أصبحت القوى "الداخلية" في المنطقة هي مصدر أخطر التهديدات الموجهة للمصالح الأمريكية.

على شاكلة كافة الأنظمة الثورية، سرعان ما تورطت إيران الخمينية في حرب مع جارتها، فحين خشي الديكتاتور العراقي صدام حسين اندلاع ثورة يقوم بها السكان الشيعة المؤيدون لإيران في العراق، قرر غزو إيران عام ١٩٨٠، وعكست ملاحظة كيسنجر التهكمية - "من المؤسف استحالة أن يخسر الطرفان معا" - المعضلة التي واجهتها الولايات المتحدة الآن. فمن الصعب أن يشكل نظام يعتبر أمريكا "الشيطان الأكبر" أداة تستخدمها السياسة الأمريكية، لكن النظام الاستبدادي البعثي بقيادة صدام حسين في بغداد، رغم علمانيته تبعا للأسلوب القومي العربي القديم، لم يكن أكثر جاذبية. وفي تطبيق فذ لـ"السياسة

العملية الواقعية" التي بزت حتى سياسة كيسنجر خلال السبعينات، انتهى المطاف بالولايات المتحدة وهي تقدم المساعدات للطرفين المتحاربين كليهما. فقد تم بيع الأسلحة سرا إلى إيران، أولا من أجل "شراء" تحرير رهائن السفارة، ثم لتمويل العمليات السرية في أمريكا الوسطى. في ذات الوقت، حصل صدام حسين على ائتمانات مهمة لشراء السلع، بلغت أكثر من مليار دولار عام ١٩٨٩، رغم حقيقة أن قواته لم تكتف باستخدام الأسلحة الكيماوية فقط، بل هاجمت في إحدى المرات سفينة حربية أمريكية[٤٧]. وإذا انتهت نتيجة حرب الخليج إلى "لا غالب ولا مغلوب"، فإن الفضل يعود إلى الميكافيلية الأمريكية - المراوغة نفسها التي ألهمت إدارة ريغان لإيصال المال والسلاح إلى المجاهدين الذين يقاتلون الجيش الأحمر في أفغانستان.

لكن الصعوبة الحقيقية التي واجهتها الولايات المتحدة تمثلت في اعتماد ممارسة أي تأثير مباشر في الخليج على قدرتها على الاحتفاظ بنوع من الوجود العسكري هناك. إلا أن إحدى عواقب الثورة الإيرانية تجلت في عدم تحمس السعودية لتقديم تسهيلات إلى القوات الأمريكية والسماح لها بالوصول إلى القواعد المنتشرة في منطقة الخليج. ورغم ترحيبها - في أعقاب الثورة الإيرانية مباشرة - بوصول سرب من مقاتلات "اف ١٥" الأمريكية، ثم (في أكتوبر ١٩٨٠) بطائرات "الأواكس"، إلا أنها وضعت حدا لسياسة "الإجماع الاستراتيجي" التي تبناها وزير الخارجية الكسندر هيغ، وتضمنت حرية أكبر في استخدام القواعد في منظمة الخليج من قبل القوات الأمريكية. ومن الأمور التي كان لها أهميتها الدلالية، أن قوة التدخل السريع التي أنشئت لتطبيق مبدأ كارتر قد تمركزت أولا في تامبا، بولاية فلوريدا على بعد آلاف الأميال عن المنطقة. في أيار/ مايو ١٩٨١، أعلن مجلس التعاون الخليجي (الذي تهيمن عليه السعودية) أن منطقة الخليج برمتها ينبغي أن تظل "في منأى عن الصراعات الدولية، خصوصا تواجد الأساطيل الحربية والقواعد

الأجنبية"[٤٨]. ولم يحظ التواجد البحري الأمريكي بالقبول إلا حين غدا واضحا أن إيران والعراق يستعدان لمهاجمة سفن الشحن المحايدة في الخليج. في عام ١٩٨٧، رفعت ناقلات النفط الكويتية العلم الأمريكي لتبرير حماية البحرية الأمريكية لها[٤٩]. وأخيرا، سمحت السعودية عام ١٩٩٠ بتواجد القوات الأمريكية على ترابها. ولسوف يتبين أن القرار محفوف بالخطر للجانبين كليهما. لقد "صنعت" الإمبراطورية الأمريكية - دون قصد - عدوا جديدا وخطيرا.

منطق الإرهاب

لماذا أمر أسامة بن لادن (السعودي) واحدا وعشرين من أتباعه (ومعظمهم من السعوديين) باختطاف أربع طائرات ثم استخدامها لاقتحام مركز التجارة العالمي، والبنتاغون، والبيت الأبيض (على الأرجح)؟ بيان "الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين"(٢٣/ ٢/ ١٩٩٨) الذي وقعه أسامة بن لادن وآخرون، قدم ثلاثة أسباب ("حقائق ثلاث تواترت عليها الشواهد") وراء الفتوى الشهيرة "بقتل الأمريكان وحلفائهم" مدنيين وعسكريين:

نص بيان الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين

أولا: ((.....)).

ثانيا: رغم الدمار الكبير الذي حل بالشعب العراقي على يدي التحالف الصليبي اليهودي، ورغم العدد الفظيع من القتلى الذي جاوز المليون، رغم كل ذلك يحاول الأمريكان مرة أخرى معاودة هذه المجازر المروعة.

ثالثا: وإذا كانت أهداف الأمريكان من هذه الحروب دينية واقتصادية فإنها كذلك تأتي لخدمة دويلة اليهود، ولصرف النظر عن احتلالها لبيت المقدس وقتلها

للمسلمين فيه. ولا أدل على ذلك من حرصهم على تدمير العراق أقوى الدول العربية المجاورة، وسعيهم لتمزيق دول المنطقة جميعا كالعراق والسعودية ومصر والسودان إلى دويلات ورقية تضمن بفرقتها وضعفها بقاء إسرائيل ((.....)).

إذن، الهدف من قتل الأمريكيين واضح جلي: تحرير الأقصى ((.....)) من قبضتهم، وطرد جيوشهم من أرض الإسلام، مهزومة وعاجزة عن تهديد أي مسلم[٥٠]. وردد ابن لادن هذه الكلمات في مقابلة أجراها مع مجلة "تايم" بعد أحد عشر شهرا (وقبل ثمانية أشهر من هجمات الحادي عشر من سبتمبر)[٥١]. أهدافه - باختصار - هي إخراج القوات الأمريكية من المملكة العربية السعودية، ومن الشرق الأوسط، وإسقاط الحكومات العربية المتعاطفة مع الولايات المتحدة، وتدمير دولة إسرائيل. كما أن معظم البيانات اللاحقة المنسوبة إليه متساوقة مع هذه النقاط[٥٢].

خدع بعض المعلقين الغربيين بخطاب ابن لادن البلاغي الطنان عن الوحدة الإسلامية والجهاد العالمي، وتخيلوا أنه نذير حقيقي يرهص لصراع الحضارات[٥٣]. لكن من الأصح والأدق القول إن ابن لادن نتاج لحضارة الصراعات الواضحة في الشرق الأوسط، ثقافة سياسية متخلفة ومعيقة حل فيها الإرهاب منذ أمد طويل محل السياسة السلمية والحرب التقليدية كلتيهما. ومما لا شك فيه أن من المرضي تخيل وجود شعور إسلامي جمعي بالتحرر من إسار الوهم التاريخي، وهو عقدة تفوق قديمة حولتها قرون من الانحطاط التاريخي إلى "انحدار شديد نحو الكره والحقد، والغضب والرثاء للذات، والفقر والقمع"[٥٤]. لكن أيديولوجيا "القاعدة" لا يجمعها سوى القليل من العوامل المشتركة (نسبيا) مع المنظومات الاعتقادية للأغلبية الساحقة من الجماهير في أكبر الدول الإسلامية، مثل إندونيسيا وتركيا، ناهيك عن الجاليات الإسلامية المهاجرة في الغرب. وحتى معتقدات ابن لادن الدينية تحمل معالم خاصة ((.....))، التي لا يكاد تأثيرها يتجاوز الصحارى في شبه الجزيرة

العربية. إن أفضل فهم للقاعدة هو اعتبارها بمثابة جناح متطرف من الدين السياسي العربي الخاص، وهو تعبير تفسيري استخدمه مؤخرا مايكل بيرلي لفهم الصفات والسمات الجوهرية للنازية: قيادتها المتحمسة، حاجتها لغرس أفكارها ومبادئها، شهوتها للاضطهاد والقمع[٥٥].

يجب ملاحظة أن ذلك لا يماثل القول إن القاعدة نتاج "الفاشية الإسلاموية"، رغم أنهما تشتركان في العنف وفي معاداة السامية[٥٦]. فالحركات الفاشية في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين لم تبرع أبد في ممارسة الإرهاب، حيث فضلت الاستيلاء على السلطة في الدول القومية الموجودة وشن الحرب باستخدام القوات العسكرية التقليدية. التسمية الأقرب إلى واقع الحال هي "الإسلاموية التدميرية"، أو ربما "الإسلاموية البلشفية"، إذ يجب ألا يغيب عن بالنا أن لينين وستالين كانا من الإرهابيين أيضا في سنواتهما المبكرة. في الحقيقة هناك أكثر من مجرد تشابه عابر بين "أوليانوف وارث اللقب النبيل"، كما كان لينين الشاب يحب أن يلقب نفسه، حين رسم الخطط للإطاحة بحكم القياصرة في الفنادق السويسرية الوضيعة، وبين المليونير السعودي، الذي ينسق عملية إسقاط أمريكا من إحدى المغاور الأفغانية النائية المعزولة. ينبغي أن يذكرنا ذلك أيضا بأن "الحضارة الغربية" (إلا إذا عنينا بها الاندماج البروتستانتي - الربوبي* - الكاثوليكي - اليهودي، الذي يشكل اليوم الثقافة الأمريكية) ظلت قادرة في الماضي على "إنتاج" أديان سياسية تماثل "الإسلاموية البلشفية" الحالية في تعصبها وتعطشها للدماء.

لا يعتبر الإرهاب - الذي يعني الاستخدام العشوائي للعنف بواسطة قوى لا تتبع دولة معينة سعيا لتحقيق أهداف سياسية - شيئا جديدا، خصوصا في الشرق الأوسط، وضد الإمبراطوريات. فبحلول أربعينات القرن العشرين، ألف البريطانيون

* الربوبية: الإيمان بوجود خالق متعال لا يتدخل في الكون، وبدين طبيعي مبني على العقل لا على النقل. (المترجم)

العمليات الإرهابية، نظرا لأن الأقليات الراديكالية بين رعاياهم الأيرلنديين والبنغاليين قد انخرط أفرادها منذ مدة طويلة في عمليات وحملات اغتيال واسعة النطاق سعيا لتحقيق الاستقلال. وكان الإرهاب قد لعب دورا حاسما في إسقاط إمبراطوريتي هابسبورغ* ورومانوف**. ومنذ ستينات القرن التاسع عشر، ظهر أشخاص، مثل الفوضوي الروسي سيرغي نيكاييف، يبشرون بمبدأ الإرهاب، حيث أصبح - لمؤازرة وتشجيع "الثورة كفكرة ونظرية" - غاية في حد ذاته. نيكاييف هو الذي كتب "تعاليم الثورة" (١٨٦٨)، وأعلن فيه أن "الثوري لا يعرف سوى عِلم واحد: علم الدمار.. وغرضه واحد فقط: الدمار السريع والأكيد لهذا النظام الفاحش القذر"[٥٧]. هنالك أوروبي آخر، الإيطالي كارلو بيساكين، نحت عبارة "الدعاية بالفعل لا بالقول"[٥٨]. ولو كان جوزف كونراد حيا يرزق لفهم على الفور تفكير بن لادن وأدرك منطقه في انتقاء الأهداف. فقراء روايته "العميل السري" سوف يتذكرون كلمات السيد فلاديمير، العقل المدبر الذي خطط لعملية تفجير مرصد غرينتش ضمن "سلسلة من الاعتداءات.. تنفذ هنا في هذا البلد". ويشرح فلاديمير قائلا: "يجب أن تفرز هذه الاعتداءات تأثيرا كافيا لتجفل وتروع. وتوجه ضد المباني على سبيل المثال.. يجب أن يملك الهجوم كافة السمات الصادمة الرعناء للكفر الذي يفتقد كل المسوغات.. [ويكون] مثل أشد الاستعراضات المرعبة للحماقة الوحشية الضارية". باختصار، يجب أن يكون فعلا رمزيا يتحدث عن نفسه.

* عائلة ملكية ألمانية قدمت العديد من الحكام لمختلف الدول الأوروبية بدءا من أواخر العصور الوسطى وحتى القرن العشرين (وصل آل هابسبرغ إلى ذروة قوتهم خلال حكم ملك إسبانيا شارل الخامس ١٥١٦- ١٥٥٦). (المترجم)

** عائلة مالكة روسية حكمت بين عامي ١٦١٣- ١٩١٧. أجبر آخر أفراد آل رومانوف، القيصر نيقولا الثاني، على التنازل عن العرش بعد الثورة الروسية (١٩١٧) وأعدم مع أسرته بعد سنة. (المترجم)

ثم يسأل فلاديمير "الإرهابي" الذي سينفذ العملية[٥٩]: "ما هو الصنم الذي يعبده حاليا كل البرجوازيين يا سيد فيروك؟". قبل مائة سنة كان "الصنم المعبود" هو العلم؛ ولذلك استهدف الهجوم المرصد. في عام ٢٠٠١، أصبح الاقتصاد هو الصنم، أو على وجه الدقة، العولمة الاقتصادية، ومن هنا الهجوم على مركز التجارة العالمية، كما يمكننا أن نحاجج.

لكن الإرهاب في عالم الواقع يتجاوز مجرد الرمز. إنه استمرار للحرب بوسائل أخرى - من قبل أولئك الذين يمنعهم ضعفهم من شن الحرب العادية سعيا وراء أهدافهم السياسية. الملمح المميز للإرهاب يتمثل في عشوائية وعدم انتظام العنف فيه، التقانة التي يستخدمها بدائية ومتخلفة. والإرهابيون، خلافا للمعتقد السائد، على درجة كبيرة من الضعف والانكشاف أمام الإجراءات المضادة - خصوصا حين لا يملكون قواعد على أراض أجنبية يعملون انطلاقا منها. موارد الإرهابي أقل بكثير من الدول التي يحاربها، ولذلك تعتمد المنظمات الإرهابية على توليفة تجمع سرقة وتسول التمويل. يمكن للمنظمة الإرهابية أن تعمل في بلد دون مصادر خارجية لدعمها، لكنها تتطلب موقعا آمنا يوفر لأعضائها إمكانية تحضير هجماتهم دون خوف من حظر أو منع أو تدخل. وحين لا يتوفر مثل هذا المكان، لابد أن يسعى الإرهابيون للحصول على الدعم من الخارج. أما الدول التي تقدم لهم العون - أو حتى مجرد التعاطف - فيستبعد أن تصبح أهدافا لعنفهم وهجماتهم. وعلى العكس من ذلك، فإن الدول الأجنبية التي تدعم الطرف الآخر - الحكومة التي يحاربها الإرهابيون - ربما تجد نفسها متورطة في الصراع.

بعد أن تعرضت الدول العربية للإذلال في ساحة المعركة، لجأت منذ وقت مبكر إلى رعاية إرهاب اللاجئين الفلسطينيين*. وشن "الفدائيون" الفلسطينيون،

* يرى المؤلف أن مقاومة العرب والمسلمين "إرهابا" حتى حين يعترف أن دوافع الغرب - وإسرائيل =

انطلاقا من قواعدهم في مصر ولبنان والأردن، عددا كبيرا من الهجمات ضد المدنيين الإسرائيليين بعد عام ١٩٤٩. وخلال ست سنوات (١٩٥١- ١٩٥٦) قتل أكثر من أربعمائة إسرائيلي وجرح ثمانمائة نتيجة هذه الهجمات. وبعد حرب الأيام الستة، انطلقت منظمة التحرير الفلسطينية في عملياتها من أراضي الأردن، إلى أن أجبر الضغط الإسرائيلي حكومته على طرد المنظمة في عام ١٩٧٠[٦٠]، لتنتقل بعدها إلى جنوب لبنان، حيث خلق سقوطه في خضم الحرب الأهلية فيما بعد بنية مثالية للمنظمات الإرهابية (وهو وضع لم يفعل التدخل السوري عام ١٩٧٦ شيئا لتغييره). الهجمات الإرهابية التي شنها مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية المتمركزة في لبنان استحثت إسرائيل على اجتياح البلاد في أعقاب عملية اختطاف دموية لإحدى الطائرات في آذار/ مارس ١٩٧٨، رغم موافقتهم اللاحقة على تسليم المنطقة الحدودية إلى قوات الأمم المتحدة. بعد أربع سنوات (حزيران/ يونيو ١٩٨٢)، شنت إسرائيل هجوما شاملا على لبنان، وحاصرت معقل منظمة التحرير في بيروت الغربية وطردت قياداتها خارج لبنان - إلى تونس هذه المرة. لكن وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك أرييل شارون، لم يقنع بكل ذلك. وأدى قراره الأناني الازدرائي بإطلاق العنان لحلفاء إسرائيل من الموارنة باستباحة مخيمي صبرا وشاتيلا، إلى مجزرة مريعة حصدت أرواح عدد يتراوح بين سبعمائة وألف شخص. ووسط إدانة عالمية ضارية - شاركت فيها الولايات المتحدة - أعيد نشر قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة من جديد. وكان من بينها عدة مئات من مشاة البحرية الأمريكية (المارينز).

شنت منظمة التحرير الفلسطينية وحلفاؤها حربا طويلة الأمد على جبهتين اثنتين: على إسرائيل بشكل مباشر، وعلى الإسرائيليين أو المتعاطفين معهم - كما

= تبعا - اقتصادية ودينية، ويعترف أن كلمة إرهاب هي «شكل» أو غلاف لهذه الحروب. (المُراجع)

افترضت - في الخارج. لكن الإرهاب وحش أسطوري بعدة رؤوس. فعلى الرغم من أن المنظمة قد تلقت ضربة قوية خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان، إلا أن الثمانينات شهدت ظهور وبروز جماعات جديدة، مثل جماعة أبو نضال، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وحزب الله، وحماس. وفي حين أن منظمة التحرير الفلسطينية تدين بالفضل الأكبر إلى القومية والماركسية، إلا أن هذا الجيل الجديد من الإرهابيين ارتبط أساسا بالإسلام. وما جعل أساليب أفراده التكتيكية مميزة عن تلك التي سادت في الستينات والسبعينات ميلهم الأقوى لاستخدام العمليات الانتحارية ورغبتهم الأشد بمهاجمة الأمريكيين. يجب أن نعزو أهمية دلالية أقل على الأرجح لهذا الميل. ففي معظم الدول، في معظم الفترات التاريخية، كان الإرهابيون الذين يرتكبون أعمال القتل انتحاريين في واقع الأمر، فإما أن يقتلوا عند ارتكاب عملهم الفظيع، أو ينفذ بهم حكم الإعدام بعد أن يقبض عليهم. وأولئك الخبراء الذين أصيبوا بالحيرة والارتباك - لوهلة - نتيجة رغبة منفذي هجمات الحادي عشر من سبتمبر العارمة "لقتل أنفسهم كميلهم لقتل الآخرين"، غاب عن أذهانهم العديد من السوابق المجسدة لمثل هذا المسلك[٦١]. الأهم من كل ذلك حقيقة أن الإرهابيين أصبحوا الآن يعتبرون الأمريكيين أهدافا مشروعة. نقطة التحول في هذا السياق حدثت في الثامن عشر من نيسان/ أبريل ١٩٨٣، حين فجر انتحاري السفارة الأمريكية في بيروت، ليقتل ثلاثة وستين شخصا، من ضمنهم كل أفراد فريق المخابرات المركزية الأمريكية في الشرق الأوسط[٦٢]. بعد ستة أشهر، وفي مهمة انتحارية أخرى، اقتحمت شاحنة محملة بالمتفجرات ثكنات مشاة البحرية الأمريكية في بيروت، فقتل ٢٤١ فردا منهم. الأسلوب التكتيكي نفسه قتل أربعة أشخاص حين استخدم ضد السفارة الأمريكية في الكويت.

كان تأثير هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ قويا إلى درجة جعلت من السهل نسيان حقيقة أن عدد الحوادث الإرهابية على المستوى العالمي انخفض في

واقع الأمر بعد أن بلغ ذروته في الثمانينات (انظر الشكل ٩).

الشكل ٩
إجمالي عدد العمليات الإرهابية
١٩٧٧-٢٠٠٢

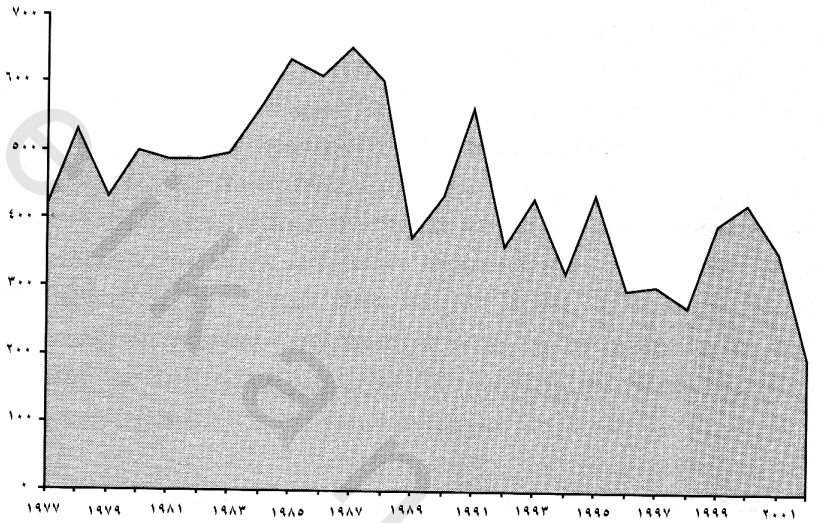

Source: Department of State, *Patterns of Global Terrorism,* various issues, http://www.usis.usemb.se/terror/.

إذ فاق عدد الهجمات عام ١٩٨٧ تلك التي حدثت عام ٢٠٠٢ بثلاث مرات. لكن في الوقت نفسه، ارتفعت نسبة الهجمات الموجهة إلى الأمريكيين والمصالح الأمريكية (رغم حدوث انخفاض بين عامي ١٩٩٤- ١٩٩٥). وكما يظهر الجدول رقم (٤)، وقع أمريكي واحد من بين كل عشرة ضحايا للعمليات الإرهابية العابرة للحدود منذ عام ١٩٩٣. لقد تعرض مركز التجارة العالمية للهجوم أول مرة في عام ١٩٩٣. وأعقب ذلك تفجير مبنى يضم ثكنات أمريكية في السعودية عام ١٩٩٦، ثم السفارتين الأمريكيتين في نيروبي ودار السلام في آب/ أغسطس ١٩٩٨، والهجوم على المدمرة "كول" في عدن (تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠). ولم تكن نبوءة لجنة الأمن القومي، برئاسة غاري هارت ووارن رودمان، جامحة في خيالها حين حذرت في

تقريرها الأول (أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩) من "حصول بعض الإرهابيين وجماعات ساخطة أخرى على أسلحة دمار شامل وتخريب شامل، ومن أن بعض الإرهابيين سيستخدمونها. ومن المرجح أن تسبب موت الأمريكيين على التراب الأمريكي، ويحتمل أن يكون عدد الضحايا كبيرا"[٦٣]. مرة أخرى نقول إن الأمر المفاجئ في أحداث الحادي من سبتمبر هو أنها لم تحدث قبل ذلك. لقد قدمت الولايات المتحدة المعونات والدعم لإسرائيل طيلة سنين عديدة. ودعمت نظام الشاه في إيران. ونشرت جنودها في الجزيرة العربية. ولم تفتقر الجماعات الإرهابية في الشرق الأوسط إلى الدوافع والبواعث لشن هجوم على أمريكا.

ما عرض على المواطن الأمريكي العادي في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ أدركه الخبراء والمختصون منذ سنوات عديدة. لم يقتصر الأمر على كون الأمريكيين هدفا وحسب، بل كانوا أيضا هدفا سهلا. صحيح أن الإرهاب قد لا يكون أمرا جديدا، لكن الإرهابيين يتمتعون اليوم بمزايا مدهشة وأفضلية مذهلة على أسلافهم. التقانة تعني إمكانية إلحاق دمار هائل بتكلفة لا تذكر؛ ومن هنا زيادة عدد الضحايا في كل هجوم[٦٤]. يمكن شراء بندقية "كلاشنيكوف" الهجومية ببضع مئات من الدولارات، والتكلفة الحقيقية لرأس نووي - والتكلفة الفعلية للكيلو طن من المواد النووية بالتأكيد - اقل اليوم مقارنة بأي فترة سابقة منذ أن حقق مشروع منهاتن هدفه. بلغت تكلفة إنتاج أول قنبلة ذرية عام ١٩٤٥ حوالي ملياري دولار. وعند حساب المبلغ بأسعار عام ١٩٩٣ يتضاعف عشر مرات، أي ما يكفي لشراء أربعمائة صاروخ من طراز "تريدنت ٢"[٦٥]. أما حقيقة قدرة فرنسا على مضاعفة ترسانتها النووية (من ٢٢٢ رأسا حربيا عام ١٩٨٥ إلى ٤٣٦ عام ١٩٩١) بينما تزيد ميزانيتها الدفاعية بنسبة تقل عن ٧٪، فهي واضحة المضمون ولا تحتاج إلى شرح[٦٦]. لكن "القاعدة" لم تكن بحاجة إلى مثل هذا السلاح المعقد والمتطور لتدمير أعلى برجين في منهاتن: دروس تدريبية على الطيران وبضع

سكاكين. من الممكن الآن تلقي ثمانين ساعة تدريب على الطيران بمبلغ يقل عن تسعة آلاف دولار. أما ثمن السكين الحادة فلا يتجاوز دولارين ونصف الدولار. وفي مقابل مبلغ نقدي زهيد، تمكنت حفنة من الرجال من قتل ٣١٧٣ شخصا[٦٧]، وإلحاق أضرار اقتصادية مباشرة قدرت تكاليفها بـ ٢٧,٢ مليار دولار، وهذا جزء بسيط من الخسائر التصاعدية في الدخل القومي الذاتي قدرت في البداية بنسبة ٥٪ من الناتج المحلي الإجمالي (GDP). بالنسبة لصناعة التأمين، وصلت التكاليف النهائية للكارثة - كما قيل - إلى مبلغ تراوح بين ٣٠ - ٥٨ مليار دولار؛ وتعرضت شركات الطيران الأمريكية لضربة قوية، كذلك السياحة. وواجه دافعو الضرائب فاتورة لا تشمل فقط تكاليف إعادة البناء، بل إنقاذ شركات الطيران، وزيادة كبيرة في نفقات الدفاع و"الأمن الوطني"[٦٨]. أما تكاليف أحداث الحادي عشر من سبتمبر على المدى البعيد - على شكل تفاقم في حالة الوضوح واليقين، وتذبذب أسعار السوق، وتكاليف الأمن، وزيادة حجم المخاطرة - فتبقى خاضعة للتكهنات[٦٩].

قاوم الاقتصاد الأمريكي هذه الضربة بسهولة أكبر مما ظنه الكثيرون آنذاك. فمن وجهة نظر اقتصادية حصرا، يمكن مقارنة هجمات الحادي عشر من سبتمبر بكارثة طبيعية مدمرة: باهظة التكلفة لكن يمكن دفعها، كما تعتبر أقل أهمية بكثير من انخفاض أسعار البورصة الذي بدأ قبل سنة ونصف السنة[٧٠]. وبالمقارنة مع الضرر الذي يمكن أن يسببه الاتحاد السوفييتي فيما لو تحولت الحرب الباردة إلى ساخنة، ليس لهجمات الحادي عشر من سبتمبر أهمية تذكر. ولمجرد أن الحرب العالمية الثالثة لم تندلع، لا ينبغي علينا استخلاص نتيجة خاطئة مفادها أن "القاعدة" أشد خطرا على الولايات المتحدة من الشيوعية السوفييتية. ومثلما رأينا آنفا، تحمل عقيدة كل منهما بعضا من أوجه الشبه بالأخرى، لكن القدرات العسكرية لستالين، وخروتشوف، وبريجينيف تفوق تلك التي يملكها ابن لادن إلى حد بعيد. فلو شن الاتحاد السوفييتي هجوما على الولايات المتحدة لقتل

مئات الآلاف، إن لم نقل ملايين الضحايا الأمريكيين، وأباد مدنا بأكملها لا مجرد برجين اثنين. المشكلة مع القاعدة لا تكمن في أنها تشكل تهديدا خطيرا، بل في صعوبة تحديد مصدر خطر صغير وغير منظم، وهل من الأفضل القضاء عليه أم التفاوض معه. إذن، نحن نملك من جهة إجماعا قويا على عدم السماح لكارثة فاجعة من صنع البشر، كأحداث الحادي عشر من سبتمبر، أن تحدث مرة أخرى. ومن جهة أخرى، يراودنا شك بأن تجنب تكرارها قد يكون أمرا مستحيلا.

الجدول (٤)

الأعوام	إجمالي عدد الهجمات	إجمالي عدد الضحايا	عدد الضحايا في كل هجوم	الهجمات في أمريكا الشمالية	عدد الضحايا في أمريكا الشمالية	الضحايا من المواطنين الأمريكيين	نسبة المواطنين الأمريكيين من الضحايا
١٩٩١	٥٦٥	١٦٧	٠,٣	٢	-	٢٣	١٣,٨
١٩٩٢	٣٦٣	٧٢٩	٢,٠	٢	١	٣	٠,٤
١٩٩٣	٤٣١	١٥١٠	٣,٥	١	١٠٠٦	١٠١١	٦٧,٠
١٩٩٤	٣٢٢	٩٨٨	٣,١	٠	-	١٢	١,٢
١٩٩٥	٤٤٠	٦٤٥٤	١٤,٧	-	-	٧٠	١,١
١٩٩٦	٢٩٦	٣٢٢٥	١٠,٩	-	-	٢٧٤	٨,٥
١٩٩٧	٣٠٤	٩١٤	٣,٠	١٣	٧	٢٧	٣,٠
١٩٩٨	٢٧٤	٦٠٥٩	٢٢,١	-	-	٢٣	٠,٤
١٩٩٩	٣٩٥	٩٣٩	٢,٤	٢	-	١٢	١,٣
٢٠٠٠	٤٢٦	١١٩٦	٢,٨		-	٧٠	٥,٩
٢٠٠١	٣٥٥	٥٥٣٤	١٥,٦	٤	٤٠٩١	١٥٣٠	٢٧,٦
٢٠٠٢	١٩٩	٢٧٣٨	١٣,٨	-	-	٦١	٢,٢

١١/٩

مثلما سادت في الثلاثينات خرافة أن "القاذفة ستصل إلى هدفها دوما"، كذلك يسود الاعتقاد الخرافي اليوم بأن الإرهابي سيصل إلى هدفه دوما. يمكن تقليص ظاهرة الإرهاب الداخلي، وأن تعذر القضاء عليها تماما، عبر توليفة تجمع بين ضبط الأمن، والشدة والتفاوض.

شكل الإرهاب مشكلة حادة في أوروبا الغربية خلال السبعينات، وذلك حين قامت الأقليات القومية (في أيرلندا وإسبانيا)، والمتطرفون الماركسيون (في إيطاليا وألمانيا واليونان) بالعديد من عمليات الاغتيال والتخريب. أما اليوم، وباستثناء جماعة الباسك الانفصالية (ايتا)، فإن مرتكبي هذه الجرائم قد سجنوا، أو همشوا، أو أقنعوا بنبذ العنف. ولذلك انخفض عدد الحوادث الإرهابية بشكل حاد[٧١]. فمن الناحية العملية، انشق الجيش الجمهوري الأيرلندي المؤقت، وأجبرت قيادته في نهاية المطاف على الاختيار بين البندقية وصندوق الاقتراع، رغم تلاشي الأمل - حتى على المدى البعيد - بتحقيق هدفه المتمثل بتوحيد أيرلندا. المتطرفون اليساريون الذين برزوا عام ١٩٦٨ إما ماتوا، أو سجنوا، أو وصلوا إلى الحكم بعد أن تحولت آراؤهم - بصورة عجيبة - نحو الاعتدال نتيجة إغراءات السلطة. ولا توجد حركة إرهابية منيعة على الانقسام حين تواجه بسلاحي التهديد والشدة والحوار والتفاوض في آن معا.

هل يمكن نزع فتيل قنبلة الإرهاب في الشرق الأوسط كما حدث في أوروبا؟ يستحيل ذلك على ما يبدو طالما تسعى إسرائيل للتوصل إلى حل عسكري مجرد للمشكلة[٧٢]. لقد سقط حتى الآن (صيف عام ٢٠٠٣) نتيجة أعمال العنف المتبادلة بين الإسرائيليين والفلسطينيين داخل إسرائيل وفي المناطق المحتلة حوالي ثلاثة آلاف

قتيل منذ بداية "انتفاضة الأقصى" في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠: أكثر من ألفي فلسطيني وسبعمائة إسرائيلي[٧٣]. واضطرت حكومة ارييل شارون لبناء جدار عازل يلتف حول قرى وبيوت الفلسطينيين* كإجراء يمثل حالة اليأس التي وصلت إليها؛ وهي سياسة تدين بشيء من الفضل إلى نظام البريخت في ألمانيا الشرقية ونظام فيرفورت** في جنوب أفريقيا - جدار برلين جديد يخترق الأرض المقدسة لفرض نظام عنصري جديد.

ولن يتوقف الإرهاب في الشرق الأوسط طالما أن هناك دولا على استعداد لرعايته. الإرهاب العالمي - أو على وجه الدقة انتشار الإرهاب الدولي وامتداده نحو الولايات المتحدة - حتم ردا عابرا للحدود. وكان من الواجب أن يتضح - قبل أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ - أن دعم الجماعات الإرهابية من قبل أفغانستان وكوبا والعراق[٧٤] وإيران وليبيا وكوريا الشمالية والسودان وسورية، لا يمكن وقفه إلا عبر التدخل في الشؤون الداخلية لهذه الدول. مثل هذا التدخل لم يكن سهلا خلال الحرب الباردة، حين كان في حكم المؤكد أن يثير أي فعل أمريكي رد فعل سوفييتي. لكن حتى بعد أن منح انهيار الاتحاد السوفييتي الولايات المتحدة القدرة على "الهيمنة بحكم انسحاب المنافس"[٧٥]، وجد صناع السياسة الأمريكيون أن من الصعب تخيل القيام بأكثر من إنزال عقوبات تحذيرية لكن رمزية على وجه العموم. في نيسان/ أبريل ١٩٨٦، أمر الرئيس ريغان بتوجيه ضربات جوية ضد

* والتر البريخت (١٨٩٣- ١٩٧٣)، سياسي ألماني شغل منصب الأمين العام لحزب الوحدة الاشتراكي (في ألمانيا الشرقية)، وترأس مجلس الدولة، وأمر ببناء جدار برلين عام ١٩٦١. (المترجم)

** هندريك فيرفورت (١٩٠١- ١٩٦٦)، رئيس وزراء جنوب أفريقيا (١٩٥٨- ١٩٦٦)، تبنى سياسة التمييز العنصري، وأعلن انسحاب جنوب أفريقيا من رابطة الكومنويلث (١٩٦١). اغتيل في مدينة الكاب. (المترجم)

خمسة أهداف ليبية "لتعليم القذافي درسا مفاده أن رعاية الإرهاب من قبل الدولة باهظ الثمن"، على حد تعبير وزير الدفاع الأمريكي كاسبار واينبرغر[٧٦]. وبعد اثني عشر عاما (آب/ أغسطس ١٩٩٨)، استخدم الرئيس كلينتون التكتيك نفسه، حيث أمر بتوجيه ضربات صاروخية ضد أهداف زعم أنها عبارة عن "منشآت لها علاقة بالإرهاب" في أفغانستان والسودان ردا على تفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا[٧٧]. عروض القوة هذه لم تحقق الكثير. وفي الحقيقة، فإن صورة أحد الصواريخ العابرة وهي تصيب خيمة (خاوية) بدت وكأنها ترمز للعجز الأمريكي؛ وبحسب تعبير خليفة كلينتون كانت هذه الأساليب التكتيكية مجرد "دعابة"[٧٨].

لكن الولايات المتحدة بدأت تزيد ثقتها بقدرتها العسكرية خلال الثمانينات. وبعد ذروة الانحدار في نيسان/ أبريل ١٩٨٠، حين فشلت محاولة "مجوقلة" لإنقاذ الرهائن الأمريكيين في طهران فشلا ذريعا ومذلا، حدثت تغيرات مهمة في البنتاغون. فقد استمرت الولايات المتحدة في القيام بعمليات سرية مناهضة للشيوعية في أمريكا الوسطى، ورعت حرب "الكونترا" ضد النظام الساندينستا الذي وصل إلى سدة السلطة في نيكاراغوا عام ١٩٧٩، كما قدمت الدعم للحكومة المعادية للشيوعية في السلفادور، وحولت هندوراس إلى ما يشبه ثكنة عسكرية أمريكية[٧٩]. كان كل ذلك – من جوانب عديدة – يجسد المقاربة القديمة القائمة على مبدأ "ابن العاهرة الذي نصبناه هناك" تجاه المنطقة، وقد تزيت بزي الحرب الباردة، ووصفت بالخطاب البلاغي الطنان الذي لم يتغير كثيرا. كان اهتمام الرأي العام الأمريكي محدودا؛ إذ أظهر أحد الاستطلاعات أن حوالي ثلث الأمريكيين اعتقدوا بأن رجال "الكونترا" يقاتلون في النرويج[٨٠]. أما الأكثر جدة وطرافة فهي عمليات التدخل المكشوفة التي حدثت في الثمانينات. ففي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٣، أمر الرئيس ريغان بشن غزو شامل لجزيرة غرينادا الصغيرة في البحر الكاريبي لإسقاط

انقلاب يساري هناك. أما الاسم الرمزي للعملية، "الغضب العاجل"، فقد عكس شيئًا من المزاج العسكري المتغير[٨١]. النجاح في غرينادا تحقق مرة أخرى - بعد ست سنين - في بنما، حين أمر الرئيس جورج بوش (الأب) بإسقاط الديكتاتور الجنرال مانويل نورييغا. وبالرغم من حقيقة موافقة الولايات المتحدة سابقا على تسليم القناة إلى بنما بحلول الأول من كانون الثاني/ يناير ١٩٩٠، إلا أن إلغاء نورييغا للانتخابات في شهر أيار/ مايو زود الولايات المتحدة بذريعة تبريرية لشن غزو شامل بواسطة خمسة وعشرين ألفا من الجنود الأمريكيين[٨٢]. عملية "القضية العادلة" مثلت نقطة انعطاف جديدة: استخدام قوة كاسحة بشكل انفرادي لإسقاط، لا لتنصيب، حاكم ديكتاتوري.

أتت هذه الثقة الجديدة بالنفس من الداخل إلى حد ما. إذ إن قانون غولدووتر - نيكولاس (١٩٨٦) غير الهيكلية القيادية في المؤسسة العسكرية الأمريكية، ورقى دور رئيس هيئة الأركان المشتركة ليصبح المستشار العسكري الأول للرئيس، والأهم من ذلك، أوجد نخبة جديدة مكونة من خمس قيادات قتالية موحدة، تتحمل كل منها مسؤولية الخدمات العسكرية الحربية في منطقة جغرافية محددة[٨٣]. وما حظي بأهمية خاصة هو تحويل قوة التدخل السريع إلى قيادة مركزية جديدة، تتجاوز في "مركزيتها" نطاق المعنى الجغرافي[٨٤]. وكان لإعادة رسم "الأطلس" الكامن في هذه البنية الهيكلية الجديدة مضامين عملياتية مهمة، نظرا لأن الولايات المتحدة - كما هو واضح - لم تكن تملك قوات منتشرة بصورة متساوية في المناطق الخمس كافة. والقيادة المركزية على وجه الخصوص كان تحت تصرفها عدد قليل نسبيا من القوات؛ رغم أنها مسؤولة عن منطقة حيوية ومهمة استراتيجيا، تمتد من القرن الأفريقي إلى وسط آسيا. ومن تبعات ذلك تنامي أهمية قوات العمليات الخاصة التي تتمتع بقدرة كبيرة على الحركة[٨٥]. من الأمور المهمة في دلالتها أن الزيادات الكبيرة في ميزانيات هذه الكيانات العسكرية الجديدة

تزامنت مع تخفيضات حادة في تمويل وزارة الخارجية[٨٦]. وفوق كل شيء، أثمرت عملية إعادة التفكير في الأسلوب الأمريكي الحربي - أو على وجه الدقة، عملية تعلم الدروس من فيتنام - غلالها العقيدية في نهاية المطاف. وشرح الجنرال كولن باول، رئيس هيئة الأركان المشتركة في إدارة بوش (الأب)، ماهية هذه الدروس: لن يتكرر أبدا ذلك الجيل من الضباط الذين قادوا المجهود الحربي في فيتنام "بصورة صامتة وخانعة ومترددة لأسباب غير مدروسة، لم يتمكن الشعب الأمريكي من فهمها أو تأييدها. ومنذ الآن، لا ينبغي على الولايات المتحدة "أن ترسل قواتها للقتال في الخارج إلا إذا حظيت المعركة المحددة أو المناسبة المعنية بأهمية حيوية لمصالحنا القومية أو مصالح حلفائنا"؛ وفي مثل هذه الحالات، و"كملاذ أخير"، يجب إرسال القوات "بكل إخلاص وحماس، وبقصد واضح لتحقيق النجاح"، وينبغي تزويدها "بأهداف سياسية وعسكرية محددة بكل وضوح"، لكن يتوجب على الوسائل والغايات معا "أن تخضع لإعادة تقييم مستمرة، إضافة إلى التعديل إذا دعت الضرورة"، ولا بد من "ضمان معقول بأننا سنحظى بتأييد الشعب الأمريكي وممثليه المنتخبين في الكونغرس" (من أجل التأكد من هذا التأييد في المستقبل، أضاف باول في وقت لاحق شرطا مهما يوجب على كافة عمليات التدخل الأمريكية اتباع "استراتيجية المخرج"[٨٧].

كان تشديد باول على ضرورة توضيح الهدف صادقا ومفيدا. فلن يتكرر تحت قيادته، كما ذكر بجلاء، الإخفاق الذريع الماثل للحملة على لبنان عام ١٩٨٣. لكن من المهم تذكر أن النمط الجديد من التدخل الذي فكر به باول لن يصبح ممكنا إلا إذا حدث تغير جوهري في سياق الاستراتيجية العالمية. وحقيقة أن غزو بنما قد حدث بعد حوالي شهر من سقوط جدار برلين كانت أبعد ما تكون عن المصادفة[٨٨]. في السابق، دفع التهديد السوفييتي الولايات المتحدة للتدخل بشكل سري، وغالبا من تم ذلك للحفاظ على الحكام الديكتاتوريين الموثوقين

والمناهضين للشيوعية في أمريكا اللاتينية. أما الآن، مع تقوض وانهيار الإمبراطورية السوفييتية، أمكن للتدخل أن يصبح علنيا وسافرا، باسم القوى الديمقراطية (ظاهريا على أقل تقدير) لا في أمريكا اللاتينية فقط بل في أي مكان من العالم. بهذا المعنى، لم تحدث نقطة التحول التاريخية الحقيقية في ٩/١١ بل في ١١/٩. فبعد ثورة ألمانيا الشرقية في التاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٩، بدا واضحا بشكل مفاجئ أن الزعيم السوفييتي ميخائيل غورباتشوف لا/ولن يقدر على الحفاظ على الإمبراطورية الروسية عبر إرسال الدبابات إلى مدن أوروبا الشرقية. وبرغم أهمية ألمانيا، لم تؤد إعادة توحيدها بقيادة الغرب إلى أي رد فعل من جانب الاتحاد السوفييتي، وهو أمر شكل أسوأ كوابيس قادته السابقين. تبع ذلك ضمنا إطلاق يد الولايات المتحدة نوعا ما في كل بقعة أخرى من العالم. في الثاني من كانون الأول/ ديسمبر، أعلن بوش وغورباتشوف رسميا نهاية الحرب الباردة. وفي التاسع عشر منه بدأ غزو بنما.

حين اجتاح صدام حسين الكويت في الثاني من آب/ أغسطس ١٩٩٠، أتاح دون قصد الفرصة للولايات المتحدة لتطبق عليه العلاج الذي استخدمته لتوها مع نوريغا. أم أنه قصد ذلك عامد متعمدا؟ فحتى مع الوضع المأزوم للاتحاد السوفييتي، لا يشبه الشرق الأوسط أمريكا الوسطى. لأن تغيير النظام في بنما من قبل الولايات المتحدة بمفردها جرى دون سماع همسة احتجاج تقريبا من دول العالم. لكن ثبت أن العراق يمثل حالة مختلفة لسببين حاسمين. أولا، الاعتقاد (السائد على أوسع نطاق في عام ١٩٩٠) بأن التدخل في الشرق الأوسط يحتاج إلى تفويض من قبل الأمم المتحدة. ثانيا، إن مثل هذا التفويض، حتى وإن كان بالإجماع، لن يكون شرعيا في نظر "الإسلامويين البلاشفة" الذين لا ينتمون لأية دولة. فانتصار أمريكا في الحرب الباردة كان - في خرائب كابول النائية شبه المنسية - انتصارهم أيضا.

تنقلت بؤرة التركيز الجغرافية للإمبراطورية الأمريكية مرارا وتكرارا خلال القرن العشرين. في بداية القرن، كانت الإمبراطورية تنحصر في نصف العالم الغربي، حيث امتدت شرقا إلى الكاريبي، وجنوبا إلى أمريكا الوسطى، وغربا إلى منطقة المحيط الهادي. في منتصف القرن، أجبرت على الوصول إلى أوروبا (بعد تردد وإحجام)، وخلال معظم سنوات الحرب الباردة، بدا أمن أوروبا الغربية أكثر أهمية من آسيا، أو الكاريبي في حقيقة الأمر. لكن الشرق الأوسط أصبح - بالتدريج - محور الاستراتيجية الأمريكية: بسبب إسرائيل، والنفط، والإرهاب. ومع نهاية الحرب الباردة، سنحت الفرص لأمريكا كي تستخدم قوتها العسكرية المتجددة ضد واحدة أو أكثر من تلك الدول الخطرة التي تشكل خطرا على إسرائيل، وتمتلك النفط، وترعى الإرهاب في آن معا. السؤال لم يكن هل ستلجأ الولايات المتحدة إلى القوة ضد هؤلاء الأعداء الألداء، المصممين على معاداتها؛ إذ لم يكن بمقدورها السكوت عليهم. السؤال الذي طرح هو هل ستتصرف بمفردها أم بالاشتراك مع حلفائها التقليديين.